أمس لا يعود

info@darak-eg.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

أمس لا يعود
وليد حسن المدني
تصميم الغلاف: أسامة علام
تدقيق لغــوي- تنسيق داخلي:
www.sekoon.com
رقم الإيداع: 2017/22243
الترقيم الدولي: 978-977-6634-02-2
الطبعة الأولى: 2018

وليد حسن المدني

أمس لا يعود

رواية

دارك
للنشر والتوزيع

عما كنت أبحث طوال هذا العمر الضائعة أحلامه بين ضباب الأيام؟!

أمل عزيز

وفيها حلم تلك الليلة..

كان فناء الكنيسة متسعًا أمامه رغم الغشاوة التي كانت على عينيه، وتحجب عنه الرؤية التي باتت أمامه ضبابية إلا من بعض المعالم التي كان يشاهدها بقلبه قبل عينيه. أصوات الأجراس المرتفع رنينها كاد يصم أذنيه، رغم ما كان يشعر به من تعب إلا أنه واصل المسير، كانت أسوار الكنائس المرتفعة تحجب عنه رؤية الشمس، وفي المنتصف كان يقف الأب "مُرقص" بملابسه الكهنوتية المألوفة له كما اعتاده دائمًا عند زيارته له صغيرًا مع والده. كان محني الظهر لا يظنها بسبب تقدُّم السن بل لأنه رآه مشغولًا بشيء ما على الأرض. اقترب منه أكثر، وباتت الرؤية رغم ضبابها أوضح وبات على مقربة منه، نظر إليه في عتابٍ واستكمل عمله. كان يملأ دلو ماء من بئرٍ في منتصف فناء الكنيسة، اشتدت أشعة الشمس أمامه، رفع يده يحاول أن يحجب بها أشعتها عن عينيه بينما يستعطف الأب قائلًا:

– إني ظمآن يا أبتِ، أحتاج إلى شَربة ماء.

نظر إليه الأب "مُرقص" نفس النظرة المعاتبة، ثم همَّ يغادر المكان بينما العينان تتلهفان إليه.

– يا أبتِ إلى أين؟ إني أحتاج شَربة ماء.

التفت فجأة نحوه وكأن كل المسافات قد تلاشت بينهما من جديد، وضع يده على رأسه وكأنه يعطيه البركات، وحينها هدأت نفسه وتغيرت تلك النظرة في عينيه قبل أن يسمعه يخاطبه بصوته الوهن:

– سأعطيك الفرصة التي يحلم بها البشر منذ بداية الخليقة. سأتيح لك معرفة ما يكنه لك الناس من مشاعر يخفونها عنك، من يخونك، من ينافقك، من يظهر لك حُبًّا ويخفي به ضغينة.

– لا أريدها. كفاني ما يظهره الناس لي من مشاعر لأعيش بها. أما ما يخفونه عني هو شأنهم وليس شأني.

* * *

(1)

وفيها ما جرى في تلك الليلة

الاستيقاظ مبكرًا ليس من عادته ولا طبعه. اعتاد دائمًا على الخمول. قضت المخدرات والحشيش على آخر ما تبقى في ذهنه من حضورٍ، فبدا أمام الجميع شارد الذهن دائمًا، إلا من ذكريات ذلك الزمن الغابر وبعض تلك العادات التي ما زال مداومًا عليها، رغم ما اعتراها من سنوات النسيان؛ كتلك الزيارة الأسبوعية إلى مقابر المجاورين لصاحبة صورة باتت ملامحها مشوهة في ذهنه وما عاد يقدر حتى على استرجاعها، إلا من تلك الابتسامة الرقيقة على وجهها الذي كان يغلفه الموت، حتى إنه بات يشعر أن الزيارة لها لم تكن بدافع الوفاء بقدر العادة التي اعتادت عليها قدماه صباح كل خميس.

تبًّا.. إنه يوم الخميس، وفيه ما سيجري، وما سيحدث، وما ستئول إليه الأحداث ونهاية تلك الصراعات. فربما تكون علامات يرسلها له القدر.

لم يعبأ كثيرًا بتلك الإشارات، ولم يقتنع بها يومًا. ترك نفسه للحياة تتقاذفه فيها ريحها يمينًا ويسارًا حتى وصلنا إلى تلك الليلة.

ليس ثمّة من مفرٍّ أمامه. الاستيقاظ ورفع تلك الجثة التي تَسجِن روحه –حالمًا بلحظة خلاصها– من على ذلك السرير المهترئ ومواجهة سخافات الحياة اليومية.

فراش غير مهندم تتناثر على جوانبه بواقي ملابسه التي ربما تحتاج إلى الغسيل أو الكيّ، أو ربما بعضها جاهز للبس الآن، ولكن لا يعيد ترتيبها إلا عند الحاجة إلى ذلك، فربما يعيد غسيل ما هو نظيف أو يرتدي ما اتسخت ياقته.

تبًا من ذلك اليوم.. فعندما خرج من غرفته قاصدًا الحمَّام لفتَ نظره– وكأنه يشاهدها لأول مرة– تلك الصور المتراصة على الحائط الأمامي لصالة منزله، أول ما وقع عليه نظره صورة للبابا "كيرلس السادس" بوجهه السمح وابتسامته التي كانت تبهج والده متكئًا على عصاه الذهبية التي يعلوها الصليب، وبتلك الكلمات المطبوعات أسفل منها.

"لا تفكر في شيء، ولا تحزن على شيء. ولا تلوم نفسك على شيء. بل دِع الأمر لمن بيده الأمر؛ لأنك أنت لا تعرف شيئًا."

وعلى يمينها صورة للسيد المسيح، كتلك الصورة التي تملأ بيوت الأقباط في مصر بملامحه الهادئة الباعثة عن الأمل رغم حياة الشقاء التي عاشها، ورغم الآلام التي تحملها للتكفير عن الخطيئة الأولى للبشرية.

امتدت يده ترسم علامة الصليب في خشوع وهدوءٍ وكأنه قِسٌّ يقف في المذبح المقدَّس صباح يوم الأحد يرسل بركاته على الأتقياء الذين لم تلههم الدنيا عن الذهاب إلى الصلاة في الكنيسة. وعلى يسار تلك الصور–التي وضعها والده منذ زمن بعيد– توجد تلك الصور التي وضعها هو بنفسه، والتي حاول هو أن يعيد التوازن بها إلى منزله بعد أن فارق أبواه الحياة ولم يجرؤ على تغيير شيءٍ مما كان عليه. صورة للثائر المثالي له (تشي جيفارا) بنظرته الغامضة

إلى المجهول، تلك الصورة الشهيرة التي التقطت له يوم الإنزال الأمريكي في خليج الخنازير، عندما شرعت الولايات المتحدة في وأد الثورة الكوبية؛ فقاد مقاومتها المناضل "تشي جيفارا" قبل أن ينقلب على رفيق الكفاح "فيديل كاسترو". بجوارها صورة للينين مفجِّر الثورة البلشفية في روسيا، لا يتذكر عنه الكثير، ولكنه وجدها أيقونة في معظم بيوت الشيوعيين تشارك صورة جيفارا صدارة الصور التي تزين البيوت، فوضعها بجواره.

أسفل منهم التقطت عيناه هذه المرة –والتي كان يغالبها النعاس– مصحفًا موضوعًا على المائدة المجاورة له، غطت نقوشه الأتربة. أهدته إليه تلك المرأة التي تمدّ له يد المساعدة دائمًا، ربما إشارة أخرى أرسلها له القدر. تذكَّر حينها أنه على دين الإسلام. دين دخله ولا يعلم عنه شيئًا إلا إرضاءً لعاطفة اعترته في فترة الشباب، ولما أفل نجمها ضاعت منه كل الآثار المترتبة عليها. إلا من تلك الهدية التي ما زال يحتفظ بها كتذكار من سنوات الحب والشباب والثورة، عن أول حب في حياته والذي وقفت العادات والتقاليد والأديان حائلًا دون إتمامه، والذي كان يظن لسنوات طوال أن لو قُدِّرَ له النجاح لما آلت حياته إلى ما آلت إليه الآن.

مدَّ يده يزيح كومة الأتربة العالقة على المصحف والتي كانت تخفي ملامحه المزركشة، فتحه لأول مرة في حياته رغم تلك السنوات التي احتفظ فيها به، فوقعت عينه أول ما وقعت علي الآية.

{فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ إيه وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}

شعر تلك المرة برعشة في جسده لم يعرف لها سببًا. لم يفكر في الأسباب الطبيعة التي كان يرجع كل شيء إليها، وكذلك عجزت رأسه عن إدراك تلك الإشارات التي تُرسَل له منذ الصباح.

حاول إخماد تلك النيران المشتعلة في جسده منذ ذلك اللقاء بوضع رأسه تحت صنبور المياه الباردة غير عابئ ببرودة الجو التي لن تستطيع أن تهدئ ما يعتريه منذ ذلك الصباح من إشارات –ولا كذلك رائحة البول المختمر في مرحاض حمامه والذي يأنف منذ فترة عن إصلاح دورة مياهه– عن نبذ تلك الأفكار عن رأسه.

امتدت يده إلى منشفة ضاعت ملامحها من القِدم يجفف بها رأسه وهمَّ خارجًا من الحمَّام يغطي وجهه ورأسه بالكامل بتلك المنشفة، يدعك بها جبينه وكأنه يعيد إليه النشاط والحيوية لا يجففه من المياه الباردة التي ربما تصيبه بنزلة برد شديدة قد تقعده عن تلك الحفلة والتي بات العمر كله يحلم بالوصول إليها.

وقف يتأمل ملامحه في مرآة قديمة لم تخفِ الندوب فيها شعيرات الشيب التي غزت شعره. امتدت يده تداعب تلك الخصلات وابتسامة السخرية بادية على وجهه لم تستطع أن تخفف من شعور المرارة المتملكة منه. وقف للحظات يتأمل نفسه في المرآة وكأنه يشاهدها لأول مرة، ذهبت به الخيالات مذاهب. بات يتذكر كل شيء بوضوح رغم ما عاشه طول العمر من محاولات طمس الماضي بعيدًا عن ذكراه ولكن الآن يجد الماضي يتجلى له من جديد وليس أوضح من تلك الصدفة التي جمعته يوم الجمعة الماضية في إشارة مرور الإسعاف بـ "نوال بيومي" هذا الوجه الجميل الذي أطلَّ عليه مرة أخرى في العمر بعد أن ظن أنه لا تلاقي، فكانت نظرة عابرة منها، التقطتها عينه بمثابه بداية لطريق جديد، أو نهاية لطريق قديم، ولكنها كانت تلك النظرة في تمام الساعة الثانية ظهر.

****

عن تلك النظرة..

لم تكن أشعة شمس الشتاء الهادئة لتمنع عنه ذلك الإحساس عندما التقت عيناه بعينيها وسط زحمة إشارة الإسعاف بالقرب من ميدان رمسيس، المعبَر الوحيد له للخروج من حي شبرا الذي يقطنه وصولًا إلى وسط البلد، بالتحديد "قهوة صالح" التي اعتداد على الجلوس عليها مع بعض الأصدقاء الذين جمعتهم الصدفة معًا في مظاهرة أو ندوة ثقافية أو من تلك المجموعة المتسلقة التي تبحث لنفسها عن دورٍ في الحياة فامتهنت من الثورية سبيلًا لها تخفي بها ضمور حياتها.

كان ذلك عندما التقت عينيه بعينيها لأول مرة منذ أن غادر بيتها منذ عشرين عامًا مضت. ملامحها لم تتغير، بل زادت إشراقًا وبهجة. زُيِّن وجهها بنظارة طبية ذهبية اللون أضفت على لون شعرها الكستنائي المنعكسة أشعة الشمس عليه بهاءً ودلالًا، ملامحها لم تتغير، هدوء الوجه والقسمات. حتى تلك التنورة القصيرة التي تظهر ركبتيها لم تغيرها وكأنه كان يشاهدها بها بالأمس القريب.

مشيتها العصبية التي لا تخفي تفاصيل شخصيتها، والتي لم تكن تتناسب مع تلك الخطوات الهادئة التي كان يسير بها مرافقها، ذلك الشخص فارع الطول، صاحب البذلة السوداء كاملة الأناقة حتى من رابطة العنق التي يربطها على رقبته بإحكام، تابعه أمل وهو تمتد يده ليوقف السيارات المارة في وسط الطريق ليعبرا بكل ثبات، بينما يده الأخرى موضوعة في جيب بنطاله، يضع في أذنه سماعة "بلوتوث" يستكمل فيها مكالمة بدت من ملامحه أنها لم تكن تحمل خيرًا، بينما تتبعه هي، في لا مبالاته إلا بإيماءة من عينها له تخبره فيها أنها خلفه.

عندما رآها شعر بوخزة في قلبه. توقف كمن أصابته لعنة شلت قدميه عن الحركة، توقف نظره عند ذلك الرجل الخمسيني الذي يسير بجوارها، لم يكن يشك أنه رئيس التحرير الذي تدربت عنده بعد تخرجها من كلية الآداب. والذي كانت تحكي عنه كثيرًا في مكالمات السمر الليلية، مواقفها معه وتشجيعه لها وتفضيله لها عن سائر المتدربات قاصدة بذلك إلهاب نار الغيرة في قلبه والتي لم تكن لتشغل باله في هذه الآونة، ليشعر بها الآن تطبق على صدره وكأن حجرًا ثقيلًا يكبت أنفاسه ويمنعه من الحركة. متخيلًا ذلك المصير الذي كان في انتظارها لو جمعتهما الحياة. تُرى هل كان يستطيع أن يوفر لها مثل تلك التنورة باهظة الثمن التي يوفرها لها رئيس تحرير يتلقى تعليماته مباشرة من المكتب الإعلامي لرئيس الوزراء! أم تراها تشتاق إلى لحظات الثورة والحب التي جمعتهما معًا. بعد أن ارتوت من الثروة وعلمت أن السعادة الحقيقة في رفيق الروح وليس في المال، تُرى هل تزوجها أم أرتضى بها عشيقة على زوجته ابنة المسئول الكبير الذي مهَّد له الطريق لاعتلاء منصة تحرير تلك الجريدة القومية الكبيرة التي ما كانت إمكانياته وخبرته يؤهلونه لتقلده إلا من طموح أزال في وجهه كل العقبات.

ظهرت ابتسامة سخرية على وجهه وهو يرسم في خياله المبررات الوهمية عن سر نجاح الرجل الذي فضَّلته عليه. الصورة النمطية التي رسمتها أفلام الستينيات عن أن الحبيبة لا تترك حبيبها إلا من أجل ذلك المتسلق الوصولي الذي يدوس على كل القيم النبيلة في سبيل تحقيق أهدافه الدنيئة، بينما الحبيب المخدوع يظل يتمسك بمبادئه حتى يصل

في النهاية إلى ما كانت ترنو إليه آماله، فتعود إليه في نهاية المطاف تتجرع كأس الألم والمرارة بينما هو منتشٍ بحلاوة النصر.

تفكير عقيم سخر منه وهو يواجه نفسه بالفشل الذي مُنّي به طوال سنوات لم يحقق فيها إنجازًا واحدًا، بينما جميع من حوله استطاع أن يحقق ما يحلم به، حتى لو كانت تلك الأحلام بسيطة هي بيت وأسرة عجز هو عن أن يزرع نفسه بهما. بعد أن فقدَ القدرة تمامًا على الحلم.

بينما كانت أصوات آلات تنبيه السيارات تتعالى لذلك التائه في الأحلام ترجوه أن يفسح لهم طريقَ العبور، والتي امتزج ضجيجها ببعض السباب. كان غير عابئ بكل ذلك إلا من نظرة مثبتة على نوال يتابعها وطرقات وسط البلد المزدحمة تأكل جسديهما، حتى شاهدها تلتفت نحوه تنظر إليه بطرف عينيها وخصلات الشعر المائل تحجب وجهها، شعر بأن تيارًا كهربائيّا تملك من جسده في تلك اللحظة، هل يمكن أن يكون هذا خيالًا، رغم أن نظرتها لم تستمر إلا للحظات أزاحت فيها بيدها خصلات شعرها الذهبية عن عينيها الجميلتين إلا أنها مرت عليه كالدهر.

كانت تشاهده من البداية وهي الآن تلتفت إليه مودعة إياه بنظرة سمع فيها ندمًا على ذلك العمر الضائع منهما بسبب تخاذلها وضعفها اللذين دمرا حياتهما.

استكمل طريقه وقد انتابته حالة نشوى غريبة بعد حالة البغض هذه، تداعت على خياله ذكريات ذلك الزمن الجميل. مظاهرات الطلبة في جامعة القاهرة، الاشتباك مع رجال الأمن، الجلوس على رصيف الجامعة يأكلون ساندوتشات الشاورمة والبرجر، شلة الجامعة وخروجة نيلية ليلًا،

أو حضور فيلم أجنبي بالسينما، أول لمسة يد، وأول نظرة يملأَها الشوق في عين نوال التي أعادته بتلك النظرة العابرة اليوم الى أحلام الشباب فجعلته يسير وسط زحمة وسط البلد قاطعًا شارع عبد الخالق ثروت المتكدس بالمارة وكأنه طيرٌ طليقٌ يحلِّق في سماء الخيال. خطواته باتت أسرع، يقفز ما بين خطوة والثانية منتشيًا بتلك النظرة التي أعادت له الحياة كمياه النهر تروي جداول الأرض العطشى. متوجهًا نحو صومعته الجديدة؛ قهوة صالح.

****